٣ر٢٢٥ فقي الفقير، نوح

كنزان من تحت عرش الرحمن كافيان/ نوح الفقير

عمان : المؤلف، ٢٠٠١ ر.أ (٢٠٠١/٣/٥٣٦)

الواصفات/القرآن الكريم/ الآيات القرآنية

كنزان من تحت عرش الرحمن كافيان

الآيتان خواتيم سورة البقرة: فضلهما وتفسيرهما وقبس من نورهما في فقه الحياة

د. نوح مصطفى الفقير

الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قال الله تعالى:{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} سورة البقرة ٢٨٥-٢٨٦



الحمد لله، الواحد الديّان، خلق الإنسان، علّمه البيان، وهداه إلى سبل الأمن والأمان، وأنقذه بالرسالات من ظلمات الكفر إلى شطآن الإيمان، سبحانه وتعالى، كل يوم هو في شأن.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد ﷺ، المتخلق بالقرآن، المؤيد بالدليل والبرهان، المشتمل دينه على ألوان الهداية وشفاء الجنان، صلاة دائمة أبداً ما طَرَفَ الجفنان، وتعاقب الجديدان، وتمايلت الأغصان، واختال الأقحوان، وانتشر عَبَقُ الظيَّان[1]، ونظرت العينان، وسمعت الأذنان، وعلى آل بيته، وعترته، ذوي الفضل والإحسان، ومن تبعهم من أهل الإيمان إلى يوم تطاير الصحف، ونصب الميزان،...وبعد؛ فإن كنوز عرش الرحمن طيبة، كثيرة الأفنان، عبقة بالرّوْح والريحان، ومنها آيتان هما خواتيم سورة البقرة، فسطاط القرآن، عظيمة الشأن، وهما كافيتان من كافٍ، نوران من نور،

١ . الظيّان: ياسمين البر، وهو نبت يشبه النسرين، ابن منظور الإفريقي، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، صفحة ٣٧٥ مجلد١٣.

عظيمتان من عظيم، طيبتان من طيب، شافيتان من شافٍ، هاديتان من هدىً، حبيبتان من حبيب، عطرتان من عَطِر، هديتان من هدايا الكريم المنان، تفوقان عقد الجمان.

إن كلمات الآيتين قليلة، ولكن المعاني والأسرار كثيرة وجليلة، واللطائف الدقيقة المسلك تفوق الظواهر البيّنات، ومن لم ينتبه لتلك الأسرار بجليل النظر خفيت عليه الفِكَر، وربما أضاع أطايب الثمر، وليس في هذا البـــاب إلا كمـــا قيل[1]:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته

والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

١ . ذكره الرازي، فخر الدين محمد في التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) دار الفكر، صفحة ١٣٩ المجلد ٧.

فضل الآيتين وخصائصهما

ورد في السنة المطهرة أحاديث كثيرة تبـيّن فضل هاتين الآيتين، وأنهما كنزان عظيمان من تحت عرش الرحمن، وتدفعان الشر والمكروه، وتجزئان القارئ لهما عن قيام الليل، وذلك لما اشتملتا عليه من الإيمان والأعمال إجمالاً، وما تضمنتا من الثناء على الصحابة الكرام، ومدى انقيادهم للشرع بالسمع والطاعة، وتلقي أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ بالحب والتطبيق.

يظهر فضل هاتين الآيتين من خصائصهما العظيمة، وأنوارهما المشرقة، والتي من أهمها:

أولاً: أنهما نوران بُشّر وخُصَّ بهما النبي ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيْضاً[1] مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا

---

١ . نقيضاً أي: صوتاً كصوت الباب إذا فتح.

مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ)[1].

ثانياً: أنهما كافيتان من كل سوء ومكروه، فعَنْ عَبْدالرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا مَسْعُود عِنْدَ الْبَيْتِ، فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ فِي الآيَتَيْنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيلَةٍ كَفَتَاهُ)[2]، وفي رواية مسلم: (مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ)[3]، قال ابن حجر[4]: (كفتاه: أي: أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن، وقيل: أجزأتا عنه من قراءة القرآن مطلقاً، سواء كان داخل الصلاة أم خارجها، وقيل: أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقاد لما اشتملتا عليه من الإيمان والأعمال

---

١ . صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين رقم٦، باب رقم٤٣، رقم ٨٠٦.
٢ . صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن ٦٦ باب رقم١٠ حديث رقم ٥٠٠٩.
٣ . مسلم كتاب صلاة المسافرين رقم ٦ باب رقم ٤٣ حديث رقم ٨٠٧.
٤ . ابن حجر، احمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبيد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تقديم محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية صفحة ٥٦ مجلد٩.

إجمالاً، وقيل: كفتاه من كل سوء، وقيل: كفتاه من شر الشيطان، وقيل: دفعتا عنه شر الإنس والجن، وقيل: كفتاه ما حصل له بسببهما من الثواب عن طلب شيء آخر..... وقيل: الجميع).

ثالثاً: أنهما من كنز تحت العرش، ولا تخفى مكانة المكنوز، فكيف إذا كان كَنزُه تحت عرش الرحمن؟! عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعطيت خواتيم البقرة من بيت كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي) [1]، وروي عن علي ﷺ أنه قال:(لا أرى أحداً عَقِل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي، وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش)[2].

رابعاً: تطردان الشيطان، فقد روى الحاكم[3]عن النعمان ابن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى كتب

---

١ . الإمام أحمد بن حنبل، المسند، صفحة ١٥١ مجلد٥.

٢ . ابن كثير، إسماعيل بن كثير القرشي، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، صفحة ٣٤١ مجلد ١، والسيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة، بيروت، صفحة ٣٧٨ مجلد١.

٣ . الحاكم النيسابوري، أبو عبدالله، المستدرك على الصحيحين، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م صفحة ٢٦٠ مجلد٢، ووافقه الذهبي.

كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا تقرآن في دار فيَقرَبها شيطان).

خامساً: أنهما صلاة وقرآن ودعاء، ففي سنن الدارمي[1] أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش، فتعلموهما، وعلموهما نساءكم وأبناءكم، فإنهما صلاة وقرآن ودعاء).

سادساً: أنهما شفاء من الأسقام، ففي سنن الدارمي[2] عن ابن مسعود ﷺ قال: (من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة، وآية الكرسي وآيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر سورة البقرة لم يَقربْه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق).

والآثار والأحاديث في فضلهما وخصائصهما كثيرة، وفيما ذكرت كفاية لمن وفقه الله.

---

١ . الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن بن بهرام، سنن الدارمي، دار الكتب العلمية، بيروت، بعناية محمد أحمد دهمان، صفحة ٤٤٩ مجلد ٢.

٢ . سنن الدارمي، مرجع سابق، صفحة ٤٤٨ مجلد٢.

مناسبتهما لما قبلهما

بدأت السورة الشريفة – سورة البقرة– ببيـــان عظـــيم شأن القرآن، وقسّمت الناس إلى أقسام، وصنفتهم مُقدّمةً صنف المؤمنين، وأعقبتهم بذكر المختوم علـــى قلـــوبهم وأبصارهم من الكافرين، وأردفتهم ذِكرَ المنافقين الكاذبين، ثم أرشدت السورة إلى كثير من التشريعات، كدأب القرآن المدني، من صيام وحج وطلاق، وغير ذلك من عبـــادات ومعاملات وأخلاق، تجعل المؤمن على صـــراط مســـتقيم، وتهديه ومَنْ سلك مسلكه مـــن المـــؤمنين إلـــى صـــراط الحميد.

ولما كانت هذه الصفات هي التي ينبغي أن يتحلى بهـــا المؤمن، وهو بها أحرى وأقوى، وقد عُرضت فـــي ثنايـــا السورة الكريمة ناسب أن تختم بصفات الله تعـــالى، وقـــد ثبت أن من الصفات التي هي كمـــالات حقيقيـــة القـــدرة والعلم، فعّبر الله سبحانه وتعالى عن كمال القدرة بقولـــه

تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِـي الأَرْضِ}[١]، وعبّـر عن كمال العلم المحيط بالكليات والجزئيات بقوله تعـالى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّـهُ}[٢]، وإذا حصل كمال القدرة والعلم، فكان كل من في السموات والأرض عبيداً مربوبين، وُجِدوا بتخليقه وتكوينـه، كـان ذلك غاية الوعد للمطيعين، ونهاية الوعيد للمذنبين[٣]، وأما الآيتان الكريمتان آخر سورة البقرة فهما ختـام المسـك، وفيهما بيان كمال العبودية، ففي السياق مقامـان، مقـام كمال الربوبية وقد ظهر لنا، ومقام العبودية وقد ظهر منّا، والمرجو من فضله سـبحانه وإحسـانه أن يُظهـر يـوم القيامة في حقنا كمال العناية والرحمة والإحسان، وإظهار الحسنات وستر السيئات، وهو غاية في الجود والإكرام.

ولا يخفى الارتباط بين مدح المتقين في أول السـورة، ومدح المؤمنين الذين ينتهجـون نهـج النبـي ﷺ فـي التصديق والإذعان لأوامر العليم العلام، وكذا التوافق بين

---

١ . سورة البقرة ٢٨٤.
٢ . سورة البقرة ٢٨٤.
٣ . الرازي، التفسير الكبير، مرجع سابق صفحة ١٣٤ المجلد ٧.

إقامة الصلاة والإنفاق من الــرزق أول الســورة، وبــين السمع والطاعة في آخرها، كما هو تلازم الإيقان بالآخرة أولها، واعلان كون المصير لــيس إلا إلــى الله آخرهــا، فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة ومنتهاها!!

سبب نزولهما

إن لنزولهما قصة تشد الأذهـان، وتُـوقظ الوسـنان، وتُنعش الوجدان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (لَمَّا نَزَلَـتْ عَلَـى رَسُولِ الله ﷺ: {لِلَّه مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1]، قَـالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَأَتَوْا رَسُـولَ الله ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ الله، كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا، قَـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَـا وَإِلَيْـكَ الْمَصِيرُ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ[2] بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَـنَ

١ . سورة البقرة ٢٨٤.
٢ . ذلت : لانت وسهلت.

بالله وَمَلاَئكَته وَكُتُبه وَرُسُله لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد منْ رُسُله وَقَالُوا سَمعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصيرُ}[1]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلكَ نَسَخَهَا الله تَعَالَى، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخذْنَا إِنْ نَسينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}، قَالَ: نَعَمْ، {رَبَّنَا وَلاَ تَحْملْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذينَ منْ قَبْلنَا}، قَالَ: نَعَمْ، {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا به}، قَالَ: نَعَمْ، {وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافرِينَ}[2]، قَالَ: نَعَمْ)[3]، وفي رواية أخرى[4] أنه تعالى قال: (قد فعلت) بدل (نعم).

لقد غَمّت المؤاخذة بالمخفيات أصحاب النبي ﷺ غماً شديداً، وقالوا: يا رسول الله هلكنا، فإن قلوبنا ليست بأيدينا، كذا في فتح الباري[5]، وفي رواية الطبري[6] أنهم

---

١ . سورة البقرة ٢٨٥.
٢ . سورة البقرة ٢٨٦.
٣ . رواه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب رقم ٥٧ حديث رقم ١٢٥.
٤ . رواية مسلم كتاب الإيمان باب رقم ٥٧ حديث رقم ١٢٦.
٥ . ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق صفحة ٢٠٦ مجلد ٨.
٦ . الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م صفحة ١٤٥ مجلد ٣.

قالوا: (إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا وما فيها وإنا لمؤاخذون بما تحدث به أنفسنا هلكنا والله).

صدق الصحابة الكرام، ومن سأل أصقاع الدنيا عن جهادهم وفتوحاتهم أجابتهم الجبال والسهول والقيعان، ونطقت المقامات الشريفة والآثار والجدر والبنيان بحقيقة الحال وعظيم الفعال، ناهيك عن صلاتهم وصيامهم وعبادتهم وزهدهم وورعهم، فإذا أُضيف إلى ذلك فقرهم وجوعهم عرفت شدة الحال وصبر الرجال، وكريم الخصال.

كل ذلك سهل مطاق، لأن التضحية بالأجساد والأموال صنيع الشهام الكرام، فضلاً عن أن تلك الأعمال ملك الإنسان، وطوع إرادته وقدرته، فكيف إذا كانت تلك الخلال ديدنه وعادته؟ أما القلوب فمناط الوسوسة والحب والكره، وقد يطمع أحياناً، ويغبط، وهي مما لا يملك العبد، إذ قد يميل الأب إلى أحد أولاده أكثر من الباقين، فكيف

يؤاخذهم ربهم بما يملك هو ولا يملكون؟ لكن رسول الله ﷺ كثير الانصياع لأمر الله المُطاع، شديد الحرص على وحي السماء ولو اختلفت الأحوال والبقاع، ولذلك أنكر عليهم أن يقولوا كما قال أهل الكتاب، إشارة إلى قول الله تعالى في اليهود: {قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ}[1]، لقد جاءهم هذا الإنكار مع ما هم فيه من الاضطراب والوجل الذي جثوا بسببه على الركب، إلا أنه للإشفاق عليهم من العذاب، فالله سبحانه وتعالى مطلع على كل الأفعال، ومحاسب على جليل الأعمال وقليلها.

فألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين الإيمان، وقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: غفرانك ربنا واليك المصير، ورددها الصحابة الكرام حولاً كاملاً[2]؛ دون كلل ولا ملل، بل بشغف وأمل، وتآزرت ألسنتهم مع قلوبهم وسائر جوارحهم على قول تلك العبارة.

---

١ . سورة البقرة ٩٣.

٢ . الرازي، فخر الدين محمد، التفسير الكبير، مرجع سابق صفحة ١٣٥ مجلد ٧،.

وكيف لا يطيعون؟ والكون بما فيه مذلل، وكل مَن فيه مطيعون! حتى الحجارة الصم، والجبال الشامخة، والصحراء الواسعة، والأنهار الجارية، والأشجار الوارفة، والطرق المسلوكة والجُدُر المرفوعة، كلها سامعة مطيعة: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}[1]، ولما قرأها القوم، وذلت بها ألسنتهم، وسَهُل بها نطقهم، أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالتخفيف، والمكان المنيف بين البشر، فمدحهم بادي الأمر بالإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل، وبقولهم: سمعنا وأطعنا، وباستغفارهم خوفاً أن يكونوا متشبهين بغير المؤمنين، أو متخاذلين غير مطيعين، ثم قبلهم الله تعالى أحباباً وأصحاباً لنبيه، ورفع عنهم التكليف بما لا يُطاق، ووعدهم بكسب الخير، والنصر على الكافرين، إن هم طلبوا، وعلى درب المؤمنين ساروا، وبالرسول ﷺ اقتدوا.

---

١ . سورة الإسراء ٤٤.

لقد فرح الصحابة بهذا التكريم الإلهي، وما رؤي آنذاك أكثر منهم فرحاً وحبوراً وسروراً، وحق لهم، فكم من تشديد كان على السابقين؟ شددوا فشدد الله عليهم، وكم من تخفيف ويسر وعافية في هذه الأمة؟! وأين هذا الحال من حالهم لما ضجوا ضجة واحدة قائلين: نتوب من عمل اليد والرجل واللسان، فكيف نتوب من الوسوسة؟

ولما نزلت آية التخفيف قال جبريل للرسول ﷺ: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فسل تعطه، فسأل: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها[١]، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.... إلى آخر الدعاء، والله تعالى يقول: نعم، أو يقول: قد فعلت.

---

١ . السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، مرجع سابق صفحة ٣٧٦، مجلد١.

تفسيرهما بإيجاز

{آمَنَ الرَّسُولُ} الكامل الأكمل ﷺ، بشهادة باقية على مر الدهور من الله سبحانه وتعالى لنبيه، إيماناً حقاً، وتصديقاً وجزماً {بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ} منجماً مفرقاً بواسطة جبريل، من الآيات الكريمة، والأنوار القرآنية المشرقة البهية، فاعتلى بهن على الأفلاك، واجتاز البشرية وأنقذها من الهلاك، لذا أورده الله سبحانه وتعالى بعنوان الرسالة، دون تعرض لاسمه الشريف، وفي ذلك تعظيم له أيما تعظيم، وتشريف له أيما تشريف.

من هنا نجد أن النبي ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ} يقول: (وحق له أن يؤمن)[1]، فإيمانه ﷺ كان إيماناً تفصيلياً، ولكن القرآن أجمله ولم يفصله إجلالاً لمحله ﷺ، وإشعاراً بأن تعلق إيمانه ﷺ بتفاصيل ما أنزل إليه، وإحاطته بجميع ما انطوى عليه مما لا يُكتنَه كنهه،

---

١ . رواه الحاكم النيسابوري عن أنس في المستدرك على الصحيحين، مرجع سابق، صفحة ٢٨٧ مجلد ٢، وقال: هذا١ صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: منقطع، وذكر السيوطي في الدر المنثور صفحة ٣٧٦ مجلد١ روايات أخرى، وقال: هذا شاهد لحديث أنس، وبذلك يكون انجبر انقطاعه. انتهى.

ولا تصل الأفكار وإن حَلّقت إليه، وقد بلغ من الظهور إلى حيث استغنى عن ذكره واكتفى عن بيانه.

إن الذي آمن به النبي ﷺ ظاهر للعيان، عالٍ عن الإنكار لأنه تنزيل جاءه {مِنْ رَبِّهِ}، الذي رباه، ونِعمت التربية، وأدبه، ونِعم التأديب، وفي التعرض لعنوان الربوبية، والإضافة إلى الضمير العائد إلى النبي ﷺ ما لا يخفى من التعظيم لقدره الشريف، والتنويه برفعة محله المنيف.

{وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ} كما آمن به الرسول ﷺ، إن كان إيمان الرسول ﷺ بتحمل الرسالة، وإبلاغ الأمة، فإيمان المؤمنين بالتصديق والعمل[1]؛ فالمؤمنون لنبيهم ﷺ تابعون، وبإيمانهم يفتخرون، واليه يتنافسون، لأنه ناشئ عن الحجة والبرهان، ومن مشكاة النبوة مكتسب، فليس إلا نبيَّهم يقلدون، وكيف يشكّون في إيمانهم بالله {وَمَلائِكَتِهِ}؟ الملائكة الذين يراقبون ويكتبون، وهم لا

١ . الماوردي، علي بن محمد، النكت والعيون، تعليق السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٩٢م صفحة ٣٦٢ مجلد ١.

يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهم المعصومون المطهرون، وللوحي إلى الأنبياء والرسل حاملون.

ولا شك أن إيمانهم بالله كإيمانهم بملائكته {وَكُتُبِهِ} بالجملة، وما يندرج فيها كالإيمان باليوم الآخر والقدر وغيرهما من مستلزمات الإيمان.

إن الإيمان بالرسالات والكتب يستوجب الإيمان بالرسل الذين تشرّفوا بها، فالمؤمنون مقرّون بالإيمان بكتب الله {وَرُسُلِه} المذكورين بنصوص القرآن والسنة ويقولون: {لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}، كما فرّق أهل الكتابين بين الأنبياء، يؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض! ولا يسوون بينهم في التصديق، أما المؤمنون فيؤمنون بهم جميعاً، ويصدقون بصحة رسالة كل واحد منهم، تحقيقاً للحق، وتنصيصاً على مخالفة الكافرين، ولا يكتفون بالتصديق بل آمنوا {وَقَالُوا سَمِعْنَا وأطعنا}، أي: أجبنا، واستقمنا في سيرنا كما أُمرنا، وقبلنا عن طوع ما دعوتنا إليه أمراً

ونهياً، فأطعنا؛ فلا نرجو إلا {غُفْرَانَكَ} يا غفور، وقد قدمنا الوسيلة، وتقديم الوسيلة على المسؤول أقرب إلى الإجابة والقبول، ذلك إذا كان الأمر متعلقاً بالبشر فكيف إذا كان مُناطاً بك {رَبَّنَا} وسيدنا؟ أنت القائم على شأننا، ومقلب قلوبنا، وناظر أفعالنا، وكاتب أقدارنا وأرزاقنا وآجالنا، إليك أسلمنا أنفسنا ووجهنا قلوبنا، وألجأنا ظهورنا وفوضنا أمورنا، إليك نشورنا {وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}، واليك رجوعنا وحدك خاصة، فكل أمورنا مقصورة عليك، لا يشاركك بها أحد، ولا ينازعك في كبريائك مخلوق، سبحانك لا نُحصي ثناءً عليك.

أما قوله سبحانه وتعالى: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا}؛ فإن لم يكن من جملة كلام الرسول ﷺ والمؤمنين من باب الأخبار عن الله تعالى على وجه الثناء عليه فهو وعد من الله سبحانه لرسول ﷺ وللمؤمنين بالتفضل على عباده ألا يكلف نفساً إلا وسعها[1]، والظاهر

---

١ . يعتمد هذا التفسير على النسخ الذي اختلف فيه العلماء وسيأتي بيانه بإذن الله عن قريب.

أنه وعد من الله تعالى، إذ سنة الله في العباد أن لا يكلفهم إلا ضمن الوسع والقدرة، فإن كلفهم بخمس صلوات فالنفس تَسعُ ستاً وزيادة، وكلفهم بصيام رمضان والطاقة تسع شعبان معه، وفي ذلك كرم من الله تعالى وفضل، وترغيب للمحافظة على مواجب التكليف.

وللزيادة في الترغيب، وللتحذير من الإخلال بيَّن الله سبحانه وتعالى أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير يتضمن مراعاة منفعة زائدة، وأن المنفعة تعود إليها لا إلى غيرها، فقال تعالى: {لهَا مَا كَسَبَتْ}، وأضاف الكسب إليها لأن اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله.

فإن أخلَّت النفس المكلّفة بالتكليف وقصّرت فيه فقد أضرت نفسها، وحاق بها سوء عملها، فعليها ما إجترحت {وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}، وجعل الله تعالى اكتساب النفس للشر عليها، لأن مضرته مقتصرة عليها، وذلك من أشد الزواجر عن مباشرة الشر واقترافه.

ويلاحظ هنا إيراده الكسب للخير والاكتساب للشر، وذلك لما في الشر من زيادة في المعنى وهو الاعتمال؟ فالشر تشتهيه النفس، وتنجذب إليه، ويحتاج إلى تكليف وعناء وتخطيط ومصادمة الفطرة، والانحراف عكس ما جبلت عليه النفوس، أما الخير فلا يحتاج إلى جهد كثير، لأنه مما أودع الله في طبع الإنسان، وترتاح النفس لفعله، ولا يحتاج إلى حذر وتدبير، ويقدم الانسان عليه كلما صفت نفسه، وأحست بضعفها أمام الخالق، وبفقرها إليه يوم المحنة الكبرى، وكشف الحساب الدقيق الشامل الرهيب أمام الله والناس، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: لها ما كسبت من طاعة، وعليها ما اكتسبت من معصية النسيان[1].

وبعد النعمة يكون الشكر، طمعاً في الزيادة، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[2]، ولذلك وجدنا الصحابة الكرام يتضرعون ويلهجون {رَبَّنَا لا

١ . ابن الجوزي جمال الدين عبدالرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر- بيروت، ط١، ١٩٦٤م صفحة ٣٤٦ مجلد ١
٢ . سورة إبراهيم آية ٧.

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَــا} ولا تعاقبنـــا علـــى تـــرك الواجبات وفعل المنهيات، فأنت الكريم المنان، ومن نهاية الإحسان أن تعلّمنا كيف نرجوك وندعوك.

لو لم تُرد نيل ما نرجو ونطلُبه

من فيض جودك ما علّمتنا الطلبا[1]

لقد أشكل هذا الدعاء على جماعــة مــن المفســرين وغيرهم فقالوا: (إن الخطأ والنســيان مغفــوران، غيــر مؤاخذ بهما، والدعاء بذلك من تحصيل الحاصل؟ وأجيب[2] عن ذلك بأن المراد طلب عدم المؤاخذة بما صدر عــنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان والخطأ، مــن التفــريط وعدم المبالاة، لا من نفس النســيان والخطــأ، فإنـــه لا مؤاخذة بهما كما يفيد ذلك قوله ﷺ: (تجــاوز الله عــــن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[3]، ولا يخفى أن أهل اللسان فرّقوا بين (أخطأ) و(خطيء) فقــالوا: أخطــأ

---

١ . الآلوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني، مرجع سابق، صفحة٧٠جزء ٣ مجلد.

٢ . الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، ط٣، ١٩٧٣م، صفحة ٣٠٧ مجلد ١.

٣ . رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، مرجع سابق صفحة ١٩٨ مجلد٢.

يكون على جهة الإثم وغير الإثم، بينما خطيء لا يكون إلا علـــى جهة الإثم[1]، {رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا}، عبئاً ثقيلاً، يأسر صاحبه، ويحبسه في مكانه، واعصـمنا مـن اقتراف الذنب الذي لا توبة له {كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا}، من بني إسرائيل وغيرهم، {رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَـا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} من العقوبات، {وَاعْفُ عَنَّـا}، وامـح آثـار ذنوبنا بترك العقوبة، {وَاغْفِرْ لَنَا} بستر القبيح، وإظهـار الجميل {وَارْحَمْنَا} بثقل الميزان، وتعطف علينا بما يوجب المزيد {أَنْتَ مَوْلانَا} مالكنـا وسـيدنا، وناصـرنا، أنـت المستعان، {فَانصُرْنَا عَلَـى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ} الأعـداء المحاربين، الذين جحـدوا دينـك، وأنكـروا وحـدانيتك، ورسالة نبيك.

إن هذا الدعاء يستوجب التأمين، لذا يروى[2] أن بعـض الصحابة كان إذا فرغ من هذه السورة قال: آمين.

---

١ . الماوردي، النكت والعيون، مرجع سابق، صفحة ٣٦٤ مجلد١.

٢ . ابن الجوزي، زاد المسير، مرجع سابق، صفحة ٣٤٨ مجلد١.

قضية النسخ

سبق هاتين الآيتين في الترتيب القرآني قولهُ تعالى: {لِلَّه مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1]، ولهذه الآية أمثال في القرآن الكريم نحو قوله تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[2]، وقوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[3]، أما إبداء ما في النفس فالمراد به العمل بما أضمره العبد أو النطق، وهذا مما يُحاسب عليه المكلف، ويُؤاخذ به، وأما ما يخفيه في نفسه فقد اختلف العلماء في المؤاخذة به على قولين:

الأول: أن حكم الآية ثابت في المؤاخذة بما أضمره، سواء على العموم فيغفر الله لمن يشاء ويؤاخذ من يشاء، أو

---

١ . سورة البقرة ٢٨٤.
٢ . سورة آل عمران ٢٩.
٣ . سورة غافر ١٩.

على وجه الخصوص فيغفر للمسلمين، ويعذب من شاء من الكافرين والمنافقين، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية لم تُنسخ ولكن الله عز وجل إذا جمع الخلائق يقول لهم: إني مخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم وهو قوله تعالى: {يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ}؛ يقول: يخبركم به الله، وأما أهل الشرك والريب فيختبرهم بما أخفوا من التكذيب، وهو قوله تعالى: {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ})[1]، وذهب بعض المفسرين إلى أن الذي يؤاخذ به الإنسان نوع من المخفيات نحو كتمان الشهادة، وإلى هذا ذهب ابن جرير الطبري[2]، إذ قال: (إنما عنى بذلك جلَّ ثناؤه كتمان الشهود الشهادة، يقول: لا تكتموا الشهادة أيها الشهود، ومن يكتمها يفجر قلبه)، ومن هذه المخفيات التي يحاسب عليها الانسان تلك التي تحصل في النفس حصولاً أصلياً بحيث يتوجب اتصافها

---

١ . ابن الجوزي، زاد المسير، مرجع سابق، صفحة ٣٤٣ مجلد١.
٢ . الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، مرجع سابق، صفحة ١٤٢ مجلد٣.

بها، كالملكات الرديئة والأخلاق الذميمة كالحسد والكبر والعجب[1]، قال الرازي[2]: (الخواطر الحاصلة في القلب على قسمين، فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه، ويعزم على إدخاله في الوجود، ومنها ما لا يكون كذلك، بل تكون أموراً خاطرة بالبال، مع أن الإنسان يكرهها، ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس، فالقسم الأول يكون مؤاخذاً به).

الثاني: أن حكم الآية منسوخ، والناسخ قول الله تعالى بعد ذلك: {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} الآية، يدل على ذلك حديث مسلم السابق ذكره عند سبب النزول وفيه: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عزّ وجل: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا

١ . الآلوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني، مرجع سابق صفحة ٦٤ جزء ٣ مجلد١.
٢ . الرازي، فخر الدين محمد، التفسير الكبير، مرجع سابق، صفحة ١٣٥ مجلد ٧.

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}، قال: نعم[1] الحديث، وهو صريح في النسخ، وبعضهم أوّل النسخ الوارد في الحديث بالتخصيص، لأن المتقدمين يطلقون لفظ النسخ عليه كثيراً[2]، وبعضهم يرى أن قول الصحابة بنسخ الآية من باب كمال التزكية، ذلك لأنهم يرون أن وسوسة النفس مما تخضع للحساب، وهم يريدون التطهر من كل آثار الإثم، لذا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فتحرّجهم من باب كمال التزكية وتمام الطهارة، واعتقاد النقص في أنفسهم، ولا يخفى التكلف في هذا الباب[3].

والراجح أن الحكم منسوخ للأسباب الآتية:

١ . حديث مسلم آنف الذكر.

٢ . أن عدم القول بالنسخ يستلزم وقوع التكليف بما لا يطاق في وجه من الوجوه.

٣ . أنهم إنما رجحوا عدم النسخ فراراً من إثبات دخول النسخ في الأخبار، وقوله تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

---

١ . رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب رقم ٥٧ حديث رقم ١٢٥.
٢ . ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي، فتح الباري، مرجع سابق، صفحة ٢٠٧ مجلد٨.
٣ . الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٩٩١م.

وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَــا فِــي أَنفُسِــكُمْ أَوْ تُخْفُــوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّــهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} خبر من الأخبار، والصواب أن تحرّج الصحابة صريح في أنهم فهموا من الآية تكليفاً، والحكــم الشرعي المفهوم من الخبر يمكن نسخه بالاتفــاق، أمــا الخبر الذي لا يتضمن حكماً كالأخبار عمــا مضــى مــن أحاديث الأمم ونحو ذلك فلا يدخله النسخ.

فَرحُ الصحابة بتجاوز حديث النفس

عطاء الله الجزيل غير محدود، وفضله غير معـدود، وبابه غير مسدود، وماؤه مسكوب، وظله ممدود، ونعيمه لا مقطوع ولا ممنوع، إذ لم يكلف النفس المشقة، وسهل المطلوب ويسّره، وتفضّل وزاد في الفضل، وتكرّم ففاق جوده وكرمه وصف الواصفين وتقدير المقدّرين.

لقد فرح الصحابة الكرام وما كان أكثر منهم فرحاً وحبوراً حين تجاوز الله لهم ما تحدثت أنفسهم بقوله سبحانه: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}[1]، عندئذ قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ)[2]، ثم تكرم الله على هذه الأمة المحمدية فكتب حسنة لمن همّ بالسيئة ولم يفعلها قال رسول الله ﷺ: (قَالَتِ الْمَلائكَةُ: رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً -وَهُوَ: أَبْصَرُ بِهِ- فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ

---

١ . سورة البقرة ٢٨٦.
٢ . رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب رقم ٥٨ حديث رقم ١٢٧ عن أبي هريرة

تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ)[1]، سبحان ربي ما أكرمه، تفضل وزاد في الفضل، ثم تكرم فضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، ففي الحديث القدسي الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْراً) وفي رواية أخرى لمسلم: (قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ أَكْتُبْهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً)[2]؛ عجباً للعبد يتقلب في نعمة من الله تعالى، ثم يعدل به غيره ويساويه به، يأكل من خيره، ويعبد غيره، يرى الطيب بين يديه يناديه ويسعى وراء الخبائث يلهث.

وأقبح خلق الله من بات عاصياً

لمن بات في نعمائه يتقلبُ[3]

---

١ . رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب رقم ٥٨ حديث رقم ١٢٩، ومعنى (من جراي): من أجلي.

٢ . صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب رقم ٥٨ حديث رقم ٢٠٣.

٣ . الآلوسي، شهاب الدين محمود،روح المعاني،مرجع سابق،صفحة ١٥٣،جزء٣مجلد١.

لا تكليف إلا بالمُطاق

اتفق العلماء على أن التكليف بما لا يطاق ليس واقعاً في الشرع، فلا يكلف العبد إلا بما يمكنه فعله، واستدلوا بقوله تعالى: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}[1]، واختلفوا في جواز تكليف ما لا يطاق من الأحكام في الدنيا، فرأى بعضهم أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، ولا يخرم ذلك شيئاً من عقائد الشرع، وذلك أن الله لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى في سياق الآية: {رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}، ولو كان التكليف بما لا يطاق ممتنعاً لكان السؤال عبثاً[2]، فهو استعفاء عن التكليف بما لا تفي به القُدر البشرية حقيقة، والجمهور من العلماء على أن التكليف بما لا يطاق غير جائز عقلاً، واحتجوا بأنه لو صح التكليف بالمستحيل لكان مطلوباً حصوله، وحصول المستحيل مستحيل، فاللازم باطل.

---

١ . سورة البقرة ٢٨٦.

٢ . ابن الجوزي، جمال الدين عبدالرحمن، زاد المسير، مرجع سابق،صفحة٣٤٦ مجلد١.

قال الشوكاني: (والحاصل أن قبح التكليف بما لا يطاق معلوم بالضرورة، فلا يحتاج إلى استدلال، والمجوّز لذلك لم يأت بما ينبغي الاشتغال بتحريره والتعرض لرده)[1].

أقول: الخلاف نظري، والمسألة كلامية بحته، وواقع الشرع عدم التكليف إلا بما تسعه النفس وتطيقه، وتلك منّة من الله سبحانه وتعالى وفضل.

---

١ . الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، مطبعة البابي الحلبي، ط١، ١٩٣٧م، صفحة٩.

قبس من نورهما في فقه الحياة

الآية القرآنية الواحدة هي السر الأعظم، والبحر الخضم، والنور الأتم، فيها الشفاء لما في الصدور، وفيها الأمل بالنجاة في الدنيا وبعد ولوج القبور، وللمتمسك بها يوم القيامة كل السرور والحبور.

ومما تتميز به الآيتان خواتيم البقرة كثرة دلالاتهما وإرشاداتهما في فقه الحياة(الأحكام) ومن أبرز دلالاتهما أن:

١. الإيمان كلٌ لا يتجزأ، فالمؤمنون مهديون، راشدون لا يفرّقون بين الرسل، ويؤمنون بما نزل عليهم وعلى السابقين من الكتب تفصيلاً وإجمالاً.

٢. الإيمان يستلزم السمع والطاعة في آن واحد، والمؤمنون يلتمسون المغفرة، وهم بين الرجاء والخوف كالطائر بين جناحين حتى يلقى أحدهم الله سبحانه وتعالى لم يُبدّل، ولم يُغيّر.

٠٣ تكليف الله الأنفس لا يخرج عن وسعها وطاقتها، وهذا أصل عظيم في الدين وجانب مهم من جوانب الإسلام القويم.

٠٤ الإثم مرفوع عن الخطأ والنسيان في الآخرة، وفي الدنيا مختلف، فقد لا تسقط المؤاخذة على الخطأ كالديات والغرامات والكفارات.

٠٥ المسؤولية الشخصية على الأفعال والمجترحات كسباً واكتساباً، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا تكتسب كل نفس إلا عليها.

٠٦ الدعاء مخ العبادة، يصبح المسلم عليه، ولا ينام إلا على عبق عطره ونفحات كلماته، وإشراقات أنواره، ويلهج لله تعالى به عند لقاء الأعداء لينصره على القوم الكافرين.

ختام المسك

إن الحديث عن ختام سورة البقرة ذو شــجون، ومــن أراد أدراك أسراره ضاقت به أوقاته، فإن الآيتين صـــلاة ودعاء، وشفاء، ورجاء، إنهما من أفنان شجرة القــرآن التي ارتوت من اللوح المحفوظ، وكنزت تحــت العــرش، وتعطرت بهما السموات، ثم تشرفت بنزولهــا مــن بيــت العزة في السماء الدنيا إلى قلب الحبيب محمد ﷺ.

اللهم اجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصــيب، ووفقنا ربنا للعمل الصالح والقول المصيب، واجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، وجلاء غمنا، وذهاب همومنا، ونزهة أرواحنا، وشفيعنا يوم لقاك.

وصلّ اللهم على نبينا محمد، وعلى آلــه، وأصــحابه وأتباعه، صلاة دائمة أبداً ما ارتاحت روح، وحصل لقارع باب جود الكريم فتوح. آمين

والحمد لله ربّ العالمين

الفهرس